

الوسطية والتعدد وشرعية الاختلاف

مقاربة في مشروع الإسلام الحضاري

الدكتور عبد الحكيم الكعبي

جامعة مصراته

مقدمة

الإسلام دين تاريخي الروح، يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة، والعقيدة الإسلامية لا تعد نفسها جديدة، ولكنها عريقة الجذور في التاريخ إنها ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (سورة الحج/78)، فالوحدانية فكرة أزلية الوجود في النفس الإنسانية، وما الحنيفية واليهودية والمسيحية والإسلام سوى دين واحد متصل الحلقات أبدا . غير أن ظهور الإسلام في الحجاز (مطلع القرن السابع لميلاد المسيح - عليه السلام -)، كان في الواقع ثورة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية، أو بتعبير أدق انتقالاً حاسماً في تاريخ العرب، إذ جعل لهم ديناً واحداً، وحقق لهم وحدتهم السياسية، ودعاهم إلى نبذ الكثير من عاداتهم وممارساتهم الاجتماعية والخلقية، فصاروا بفضله أمة موحدة قوية قدمت للإنسانية مستوى راقيا من الإبداع الحضاري على مختلف الصُعد والمجالات

إن الواقع العربي الذي ظهر فيه الإسلام وزلزل أركانه وقيمه وكل ما كان مألوفاً فيه . واقع وصفه

القرآن الكريم بـ (الجاهلية) وقد ورد هذا الوصف في أربع آيات من سور متفرقة منه:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ (سورة آل عمران/154).

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة المائدة/50).

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (سورة الأحزاب/33).

وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (سورة الفتح/26) .

كما نجد المصطلح ذاته (الجاهلية) في كتب السيرة، ففي مكة، في أيام الإسلام الأولى أطلق أوائل الصحابة – رضوان الله عليهم – لفظ (أبي جهل) على أبي الحكم عمرو بن هشام[1]، ثم نلتقي بالكلمة عينها في يثرب بُعيد الهجرة حين قال رسول الله – ﷺ – لأبي ذر حين عيّر بلا لا بسواد أمه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[2] .

معنى الجاهلية

قبل أن نتبين معنى هذا المصطلح في الآيات الكريمة السابقة وكذلك معناه في المواضع التي وردت في كتب السيرة، نبحث على عجل عن مدلوله في المعاجم اللغوية، فيقول ابن منظور في لسان العرب : (إنها الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه وتعالى ورسله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر وغير ذلك)[3]

وواضح أن هذا التفسير يمزج بين اشتقاقين: اشتقاق من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، واشتقاق من الجهل الذي هو بمعنى النزق والتعصب والتطرف . لأن

(1) الحلبي الشافعي، علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية، دار التراث العربي، بيروت (د.ت) ج2، ص 33 .
(2) الزبيدي، أبو الفيض مرتضى بن محمد، تاج العروس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، د.ت، مادة ((جهل)) .
(3) لسان العرب، مادة ((جهل)) .

الجهل بالله ورسله لا يحتمل سوى الاشتقاق الأول، أما المفاخرة بالأنساب والتعصب والكبر والتجبر فإنها تدخل في حيز الاشتقاق الثاني[1].

ومن خلال فهمنا للآيات الكريمة التي ذكرنا ، والمواقف التي نزلت فيها نتبين أنها لا تتصل بالجهل الذي هو ضد العلم، بقدر ما تدل على أمور، هي أقرب إلى الجهل المشتق من السفه والنزق والتعصب والتسلط، ومن جانب آخر فإن مدلول لفظ (أبي جهل)، الذي أشرنا إليه، لا يعنى أكثر من الكبر والتجبر والتسلط والاستجابة



السريعة للغضب والتعصب، وهي الصفات التي كان أبو الحكم يتصف بها في حياته، وكانت واضحة فيه لذا خُصّ بها دون غيره، كما أن قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأبي ذر كان مرده إلى موقف أبي ذر من بلال، وهو موقف يدل على غفلة عما جاء به الإسلام من مساواة بين الناس جميعاً، وعلى تأثر بما كان عليه سلوك الناس وقيمهم قبل الإسلام.

وبناء على ذلك فإن جزءاً من المفهوم الذي حدده ابن منظور لكلمة (جاهلية) غير صحيح، وهو الجزء الذي يشير إلى أنها تعنى الجهل بالله ورسله وشرائع الدين إذ نقيض الجهل بذلك العلم به، وهو بعيد عما تدل عليه الكلمة في سائر التعبيرات

(1) محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، ط 4، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، طرابلس، 1994، ص 11 .

التي ذكرناها[1]. ولا يجب الخلط في هذا المجال، بين الجهل – بمعنى انعدام العلم أو المعرفة في لغتنا المعاصرة – وبين الجهل المناقض للحِلْم في اللغة العربية قبل الإسلام.

الجهل في لغة ما قبل الإسلام يعني الخضوع لسطوة الانفعال، والاستسلام لقوة العاطفة، دون الاحتكام إلى رزانة العقل وقوة المنطق، وهكذا نفهم افتخار بعض شعراء ذلك العصر بالقدرة على مقابلة الجهل بهذا المعنى بمثله، وذلك كقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[2]

كما أن بعض أهل الإسلام كان يفتخر بالأصل الذي اشتق منه هذا المصطلح، وذلك في مثل قول الفرزدق في نقيضته المشهورة :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً إذا ما نجهل

فالجهل هنا ينصب على السلوك المنافي للعقل والمنطق، وهو – كما يفهم من سياق الاستخدام في شعر ما قبل الإسلام – العدوان الذي لا سبب له ولا مبرر من جهة العقل والمنطق، إنه التأويل الاجتماعي للغة والاستناد إلى مبدأ القوة والقهر في العلاقات بين القبائل من جهة، وبين الأفراد والجماعات (بطون القبيلة) داخل القبيلة من جهة أخرى، إنه المبدأ الذي صاغه زهير بن أبي سلمى الشاعر في قوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم[3]

ولاشك في أن العلاقات الاجتماعية القائمة على الظلم (الجهل) كانت من أهم أسباب التخلف العام في ذلك الواقع، هكذا نجد بين المعنى التاريخي لمصطلح (الجاهلية) وبين معنى (الجهل) في استخدامنا المعاصر علاقة ووشائج، فعدم العلم وانتفاء المعرفة ركيزة أساسية للخضوع لسطوة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة أو لنقل التعصب والتطرف .

الإسلام، وسطية حضارية

إن كلمة (جاهلية) بمعناها التاريخي الذي ذكرناه تقابل كلمة (الإسلام) التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجلّ، وما يطوى فيها من سلوك متوازن، محكوم

(1) المرجع نفسه، ص 12 .
(2) شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص178 .
(3) المصدر نفسه، ص 78 .

بمكارم الأخلاق، ومن تواضع وتسامح ولين في الجانب، بعيدا عن التطرف والتعصب، وما يعنيه ذلك من تحقيق لمعنى الوسطية والشهادة على الناس، تلك السمة الرئيسة التي ميزت حضارتنا العربية الإسلامية، من غيرها من ثقافات وحضارات الأمم الأخرى .

إن الوسطية، في المنظور القرآني، هي صفة رئيسة وجامعة للأمة الإسلامية، بل هي إرادة الله لهذه الأمة : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (سورة البقرة/143). . وإن هذه الوسطية – في المفهوم الإسلامي – هي وسطية حضارية إيجابية فاعلة وليست سلبية منكفئة، فهي لا تعني الانحياز إلى طرف ضد طرف آخر، أو إلى قطب من أقطاب الظاهرة دون القطب الآخر، كما أنها لا تعني التوسط المعزول عن الطرفين والقطبين والمغايرة لهما تمام المغايرة، إنها موقف جديد، وثالث، لكنه لا يغاير قطبي الظاهرة المدروسة، وإنما يجمع – بنظرة شمولية – كل ما يمكن جمعه، ويؤلف كل ما يمكن تأليفه من قطبي تلك الظاهرة، إنها موقف جديد يعبر عن خيار العدل والحق[1]، والتوازن بين متطرفين وغلاة[2].

لقد حدد الحديث النبوي الشريف بوضوح معنى هذه الوسطية الإسلامية، قال : ﷺ : (الوسط العدل، جعلناكم أمة وسطا)[3]، وتأسيساً على هذا المعنى تكون الشجاعة (على سبيل المثال) : توازنا وعدلا بين الجُبن وبين التهور، والكرم : عدلا ووسطا بين الشح وبين التبذير والإسراف، وإن كلاً من الحالتين (الشجاعة والكرم) يمثل موقفاً جديداً، وثالثاً، بين موقفين متطرفين وفي الوقت نفسه، نجد في (الشجاعة)، من تأني الجبان وحساباته ومن إقدام المتهور، القدر الذي يمكن جمعه وتأليفه كما نجد في (الكرم) من تدبير الشحيح ومن عطاء المسرف، القدر الذي يمكن جمعه وتأليفه .

ولقد عبرت الوسطية الإسلامية عن نفسها في صور ودلالات كثيرة تميزت بها حضارتنا العربية الإسلامية، وكانت من أبرز خصائصها، كما كانت في الوقت

(1) محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير، ط 5، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الرياض، 1994، ص 27 .
(2) محمد عمارة: أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الشرق الأوسط ، القاهرة (د.ت) ص30.
(3) رواه الإمام أحمد بن حنبل في ((المسند)) .

نفسه من أهم عوامل ازدهار تلك الحضارة وتقدمها، ومن الأمثلة على ذلك: موازنة حضارتنا بين مصدري المعرفة : (الوحي) وعلومه الشرعية، و (الوجود) وعلومه الطبيعية، فلا تعتمد (الوحي) وحده دون (الوجود)، ولا تصنع العكس، وكذلك لا تقف بينهما وبمعزل عنهما، وإنما ترجع إلى كتاب الوحي المقروء – القرآن الكريم – وكتاب الكون المنظور (الطبيعة)، وكثيراً ما استخدمت علوم الطبيعة لإثبات وجود الله وقدرته، واستخدمت آيات الله وسننه لفهم الطبيعة وتصور ما وراء الطبيعة.

من جانب آخر، وازنت تلك الوسطية الإسلامية في تصور مكانة الإنسان في هذا الوجود، ومديات حريته الإنسانية، فالإنسان في نظرها ليس (المجبر) الذي لا حول له، وليس (الحر) دون قيود أو حدود هو حر في إطار قدراته وإمكاناته وفيما هو مقدور له، وبازاء الخيارات التي ليست من صنعه، هو حر في شوراه الفردية والاجتماعية – في الأسرة والدولة – ولكن هذه الحرية محكومة بضوابط الحلال والحرام الدينية[1] .

وهي ذات نظرة متوازنة للإنسان والحياة، أي الموازنة بين المادية والروحية الإنسانية، فقد خلق الله – سبحانه وتعالى – الإنسان من مادة وروح، وأمده بكل أسباب الحياة في جانبيها المادي والروحي، فهيأ للجسم البيئة الصالحة التي يعيش فيها على وجه الأرض، وهيأ للجانب الروحي غذاءه من وحي السماء، فالإنسان في مفهوم الحضارة الإسلامية هو ذلك الكائن المادي والروحي، وإن حياته الصالحة المستقيمة هي التي يراعى فيها هذا الجانب وذاك، وقد تمثل الجمع الرائع بين المادية المقتصدة والروحية المعتدلة، دون تطرف لواحدة على حساب الأخرى في الآية الكريمة: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (سورة القصص/77) .

وقد تبين من تاريخ هذه الحضارة أن كلا من الروحية البحتة أو المادية البحتة وحدها ، لا تصلح أن تكون سبيلاً لسعادة الإنسان، فليس في مسلك الروحية البحتة سوى التخلف وتعطيل الإدارة والتفكير وطاقات العمل، وقتل آدمية الإنسان وخسارة منافع الكون، وتضييع حكمة الخالق في خلق العالم، وكذلك ليس في مسلك المادية البحتة سوى الطغيان والظلم والتحكم الغاشم بالأرواح والأموال والأعراض .

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص 33.

واسـتكمالاً لنظرتهـا المتوازنـة حـول مكانـة الإنسـان في هـذا الوجـود، حـددت الوسطية الإسلامية الجامعة رؤيتها المستقلة إزاء تلك المكانة : فهي لم تؤله الإنسان وتعده سيد هذا الوجود، كما أنها لم تهمش دوره، أو تمسخ مكانته، ولم تقف أيضاً بين هذين الموقفين، وإنما جمعت بالوسطية ما يمكن جمعه وتأليفه منهما ، فرأت الإنسان سيداً في الكون، وليس سيد الكون، لأنه (خليفة) عن سيد الكون[1] في الأرض، وأن دولته، ليست الدولة الدينية التي تنفي كون الأمة مصدر السلطات، وليست الدولة الدنيوية، التي تبيح لسلطات الأمة إباحة الحرام وتحريم الحلال . فالإسلام دين الجماعة ، والمسؤولية فيه فردية – في فروض العين – واجتماعية في فروض الكفاية – والتمايز الفئوي أو الطبقي في مجتمعه حقيقة ، تمثل الفطرة الإنسانية في تفاوت القدرات والملكات والاحتياجات.

والعلاقة بين هذه الفئات والطبقات لابد من أن يحكمها التوازن أي العدل، ذلك لأن كل فئة أو طبقة تعتمد على الأخرى، فهي علاقة الارتفاق والتسخير الشامل لكل ظواهر الطبيعة وقواها ، وليست علاقة السخرة أو الظلم والاستغلال، وإذا اختل ميزان العدل بين الفئات أو الطبقات، فإن الوسطية الإسلامية ترفض الاستسلام لهذا الظلم، كما ترفض الصراع الذي يطمح إليه طرف لنفي الطرف الآخر، والانفراد بالسلطات والثمرات، وتقدم البديل وهو (التدافع الاجتماعي) الذي هو حراك اجتماعي يسعى إلى تصحيح العلاقة الاجتماعية بين فرقاء متعددين، وإعادة هذه العلاقة إلى لحظة (العدل – التوازن)، وهدف الدفع تغيير المواقع، وليس نفي الآخر الاجتماعي[2] : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (سورة فصلت/34).

التعدد وشرعية الاختلاف

التعدد والتنوع هما الفلسفة التي يؤكدها الإسلام في كل أنواع الوجود ، والعالم في الرؤية الإسلامية هو منتدى حضارات تتعارف وتتفاعل من موقع التمايز الذي يحفظ لكل حضارة ما يميزها عن غيرها من الحضارات، فكانت التعددية في إطار الوحدة هي المذهب الذي ذهبته الوسطية الإسلامية حيال نظرتها إلى الإنسانية وفي رؤيتها للآخرين، فدين الله واحد أزلاً وأبداً ، وشرائعه متعددة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة المائدة/48)، فالتعدد

(1) محمد عمارة ، المرجع السابق، ص 32.
(2) المرجع نفسه ، ص 34.

والتنوع هنا في الشرائع في إطار وحدة الدين، والإنسانية واحدة، واختلافها وتمايزها إلى أمم وشعوب وحضارات سنة من سنن خالقها، وآية من آياته، وقانون من قوانين الوجود ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (سورة الحجرات/13)، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (سورة الروم/22).

إن الحديث عن التعدد وفق هذا المنظور يقودنا إلى موضوع الاختلاف وشرعيته، ذلك أن الاختلاف أساس التعددية، وهناك نوعان من الاختلاف : اختلاف داخل المعتقد الواحد، إلا أن الأطراف المختلفة تسلم مع ذلك بمجموعة من الثوابت العقائدية المشتركة، ويكون الاختلاف في مستوى التأويل، وهناك نصوص واحدة، إلا أنها تؤدي إلى تعدد المعنى، تؤول تأويلات مختلفة، وتقام عليها أنساق من المدارس، وهكذا تكونت مدارس الفقهاء وفرق المتكلمين، وهذا النوع من الاختلاف هو ما نود الوقوف عنده؛ لأن الخروج عن إطاره هو الذي أدّى، ويؤدى إلى مزالق التطرف والانحراف، أما النوع الآخر من الاختلاف، فهو اختلاف بين مفكري الإسلام مع الأطراف المناقضة لهم، أي بينهم وبين الذين هم خارج دائرة المعتقد المشترك .

إن الاختلاف الأول – وهو موضوع بحثنا – أمر محتمل الوقوع، حيثما وجد التعامل مع نص وخبر مقدسين، كلاهما يُحمل ويُتناقل بلغة تتخذ سمة الإجمال والإشارة والرمز، فتتعدد التأويلات، ثم هناك قياس الوقائع المتجددة على النص الثابت المجمل العام، وكل هذا يؤدى إلى اختلاف في (القراءة) فينتصب على رأس كل (قراءة) إمام يتحلق حوله أتباع، وهكذا تنشأ المدارس الفقهية وتختلف[1].

وحين يتحدث الفقهاء عن اختلاف السلف الأول، فكأنهم يتحدثون عن أمر عادي قد وقع بينهم، أو كان طبيعياً أن يقع، وأنه كان من حقهم أن يختلفوا، فيقول الماوردي [القرن الخامس الهجري] : (كلام كل كتاب وأخبار كل نبي لا يخلو من احتمال وتأويلات مختلفة، لأن ذلك موجود في الكلام بنفس طباعه، ولا كلام أولى بهذه الصفات من كلام الله جل ذكره، إذ كان أفصح الكلام وأوجزه، وأكثره رموزاً وأجمعه للمعاني الكثيرة ... ولابد في الدين من وقوع الحوادث (الأحداث الطارئة) التي يحتاج إلى النظر فيها، والنوازل التي لا يستغني العلماء عن

(1) علي أومليل، في شرعية الاختلاف، الرباط 1991 ص 55.

استخراجها، ولذلك صار لكل رأي تبُّع ومشرعون وأئمة ومؤتمون)[1]، ونقرأ هذه العبارة للإمام الغزالي [القرن الخامس الهجري] (وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه [أي القرآن] بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن)[2] والنتيجة المترتبة على هذا القول أن الاختلاف أمر متوقع ومشروع .

وإذا اعتمدنا الخلاصة الذي يقدمها ابن خلدون (القرن الثامن الهجري) حول مسألة الاختلاف هذه، فإننا نجد أن مبرر ظهوره شيئان : كون النصوص المقدسة تحملها لغة، وهذا في حد ذاته سبب، لاختلاف التلقي والتأويل، وكون النصوص المقدسة التي هي ثابتة لا تتغير تحاول أن تحكم واقعاً متغيراً، يقول ابن خلدون :

(وكان السلف يستخرجونها [أي الأحكام الشرعية] من الأدلة [ويتعلق الأمر في هذه المرحلة بالدليلين الأساسيين القرآن والسنة] على اختلاف بينهم، ولابد من وقوعه [أي الاختلاف] ضرورة، لأن الأدلة غالبها من النصوص، وهي بلغة العرب، وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف . وأيضاً فالسُنّة مختلفة الطرق في الثبوت، وتتعارض في الأكثر أحكامها، فيحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً) ويضيف ابن خلدون مسألة أخرى غاية في الأهمية لتبرير وقوع الاختلاف وتفسير شرعيته، وبأن وقوعه يعد أمراً طبيعياً وهي : أن النص لا يشمل الواقع في تعدده وتجدده، وهي سُنّة الكون، فالنص هو بطبيعته ثابت، موحِّد، ومختزل، في حين أن الواقع كثير، متعدد ومتجدد، فيقول : (فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص) [3] .

منشأ التطرف وأسبابه

إن الاختلاف وفق المنظور الذي أشرنا إليه، أمر متوقع ومشروع، وهو اختلاف حول النص، وليس خلافاً مع النص، ولكن موقف بعضهم لم يكن يساير هذا الاستنتاج، إذ العادة أن يعد كل طرف أن اختلاف الأطراف الأخرى، ليس اختلافا معه حول تأويل (النص)، بل يعدها مختلفة مع النص المقدس، وأن رأيه بالذات وحده المطابق للنص . وهكذا يحرّم حق الاختلاف على الآخرين؛ لأنه لا يعدّهم أطرافاً اختلفت معه حول قراءة النص وتأويله، بل يعدها اختلفت مع النص نفسه، وما أكثر

(1) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري، نصيحة الملوك، تحقيق محمد جاسم الحديثي، بغداد 1986 ص 11.
(2) أومليل، المرجع السابق، ص 50.
(3) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1967 ص 798.

ما نجد الأطراف المتخاصمة، كل واحد منهم يدعي أنه الناطق المعتمد الرسمي باسم النص المقدس، وأنه وحده العليم بكنهه، وكل ما في الأمر أنه يتقمص سلطة ا لنص المقدس لتمرير سلطته هو . يفرض فرضاً أن قوله هو المطابق تمام المطابقة للنص، وأن خصومه ليسوا مجرد أناس قد اختلفوا معه كما اختلف هو بدوره معهم، بل هم المخالفون للنص . فلا حوار إذن؛ لأن الحوار يفترض مبدئياً تكافؤ الأطراف المتحاورة، أما حين يتعالى طرف على خصومه مدعياً أنه وحده صاحب الحق المطلق، فإنه ينفي من الأساس كل إمكانية لقيام الحوار ..

وحين يقول الفقهاء إن الاختلاف أمر طبيعي، بطبيعة الكلام المرجعي المقدس وما يؤدي إليه من تأويل متعدد، وقراءات مختلفة، فإن هذا الموقف لم تستخلص منه كل النتائج المتوقعة، وإلا لترسخت ذهنية عامة تسلم بواقع الاختلاف بل بضرورته، ولقبلت الأطراف المتنازعة أن تنظر إلى خلافاتها نظرة واقعية، وبأنه خلاف بشري، تولده الاتجاهات المتباينة والمصالح المتضاربة، أي كل ما هو من خصائص الطبيعة البشرية، بدل الركون إلى عادة التعالي، تعالي كل خصم على خصمه، وادعاء كل طرف احتكار العلم وحق التأويل والتفسير، واستعمال سلطة النص المقدس لفرض سلطته هو على الآخرين، الأمر الذي أوجد دائماً تطرفا باسم الدين، يصادر الحقيقة ويشرّع للاستبداد، وهو يفرض الرأي الأوحد والسلطان الذي لا شريك له، ويحرّم المشاركة سواء في العلم أو في السلطة، هو تطرف محتكر للمعرفة، يدعي أنه الناطق الأوحد باسم الدين . لقد وجد هذا التطرف سابقاً، ولكنه لم ينقرض، فمازال يظهر بين الحين والآخر، وقد عاد الآن ليحتل مساحة مهمة مع كثير من الصخب، ويحاول من جديد مصادرة الحقيقة بالعنف، ورد السياسة إلى الاستبداد .

مبدأ الحوار والمشاركة

ليس ثمة شك في أن الإسلام، وهو يقر ابتداء بشرعية الاختلاف وحقيقته بين الناس والمعتقدات، ويؤكد قيمة الشراكة وأهمية التعايش، قد عدَّ التعارف والتعاون غاية وهدفا إنسانيا نبيلا ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (سورة الحجرات 13)، والجميع أخوة في الإنسانية أحبوا أم كرهوا، لهذا ظل العدوان في شريعته محرما ﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (سورة البقرة/190)، كما جعل السلم في منهاجه أصلاً من أصول العلاقات بين الناس ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (سورة الأنفال/61).

إن نزوع الإسلام نحو إشاعة مشروعه الحضاري على الصعيد العالمي ارتبط دائماً بمبدأ الحوار، الحوار الذي تظل في إطاره اختيارات الآخرين منوطة بحريتهم أيا كانت طبيعة تلك الاختيارات إذ ﴿ لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ ﴾ (سورة البقرة/256)، كما يظل الحاكم في جدل العلاقات – أيا كان مآل الجدل – قوله تعال : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ (سورة الاسراء/84).

والحوار في منظوره الإسلامي لا يقتصر على ناحية دون أخرى بل يمتد إلى مختلف النواحي الفكرية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، وجميع قضايا العصر ومشكلاته بغية الوصول إلى صيغ أو حلول عادلة أو مقبولة ولعل في هذا المنحى تحقيقا لمعنى الوسطية الحضارية والشهادة على الناس، ودعما لمبدأ الإنقاذ الإنساني[1].

وأخيراً لابد من القول والاعتراف بأن هناك جملة من الرؤى الضيقة التي ما برحت تعشش في عقول بعض الجماعات، التي تحمل اسم الإسلام، وتفرز بعض الحماقات المتطرفة، فتشكل تشويهاً ذاتيا للإسلام، وتعكس صورة قاتمة للمسلمين ونمط تفكيرهم، وعلى نحو من شأنه أن يدفع الآخر إلى مزيد من التطرف والتخطيط المضاد، إن ذلك يفرض على الجميع مسؤولية الشروع بالمراجعة التي لابد من أن تمتد إلى العديد من مفاهيمنا وخطاباتنا السياسية والثقافية بل الفقهية أحيانا، فالدعوة إلى الوسطية ومراعاة الواقع، وقبول الآخر، وتقديم خيارات الاعتدال والتسامح، إنما تشكل مطالب ضرورية لابد من الاعتماد عليها في تعامل بعضنا مع بعض، وفي علاقتنا بالآخر .

(1) علي القريشي، حوار الحضارات والحاجة إلى كبح جماح الهويات المتغطرسة، مجلة العربي، العدد 525 أغسطس 2002 الكويت ص 167.